ملاحظات و مقارنة بين بعض الاتجاهات التداولية : باختين و مانقونو نموذجًا

عبد القادر بوزيده

ليست هذه المداخلة أكثر من ملاحظات مدوّنة خلال قراءة بعض الدراسات اللّغوية والأدبية التي تنحو منحى تداوليا؛ أما التحليل المنهجي فيبقى أمرا عسير المنال، خاصة وأن المنحى التداولي في الدراسة،رغم أن إرهاصاته قد مضت عليها عقود من الزمن، لم يصبح تيّارا جارفا في الدراسات اللغوية والأدبيّة إلا بعد بداية خفوت موجه البنويّة (أي أنه حديث نسبيا)، ولازال لم يستكمل تطوّره بعد، بحيث يمكن الحديث لاعن تداولية بل عن تداوليات.

سأركّز على اتجاه من اتجاهات التداولية، وهو اتجاه باختين الذي يرى العديد من الدارسين أنه أحد أهمّ رواد الدراسات التداولية؛ بل أن تودوروف يذهب إلى حد القول بأنه أكبر منظري الأدب في القرن العشرين، و أنه المؤسّس الحديث للتداولية. و يتفق الدارسون، الذين أعادوا اكتشافه على حيويّة أفكاره وجدواها و راهنيتها. وسألمّح سريعا إلى بعض الالتقاءات و كذا التمايزات بينه و بين أحد ممثّلي التداولية المعاصرة، الذي اهتم هو أيضا بالعديد من القضايا التي اهتم بها باختين، وأعني به "دومنيك مانقونو"(D.MAINGUENEAU) .

عندما نقرأ أعمال باختين يسترعي انتباهنا ورود بعض المصطلحات والمفاهيم التي تتكرّر تكررا لافتا، و هي مصطلحات يرد بعضها أو الكثير منها في الدراسات التداولية المعاصرة. و نذكر منها على سبيل الخصوص: مصطلح التداولية أولا، ثم مصطلحات الملفوظ، و التلفظ، و السياق، و الاتصال، و وضعية الاتصال، و المتلفظ، و المخاطب والمضمر الخ... وهي مفاهيم و مصطلحات سنتعرّض لها ونحاول إدراك بعضها خلال هذه المداخلة. لكن يجب قبل ذلك أن نتعرّف على المنطلقات التي أسّست طريقة باختين في إدراك هذه الظاهرة التي نسميها الخطاب أو النصّ و وجهت اهتماماته.

منذ القرن التاسع عشر و بفعل التأثير الجارف للنزعة العلمية و المدرسة الوضعية بدأ الدارسون في ميدان العلوم الإنسانية يحاولون اعتماد المناهج التي أثبتت فعاليتها في العلوم الطبيعية. تناول باختين هذه المسألة و أشار إلى وجود نوع من التوازي التاريخي بين العلوم الطبيعية والإنسانيّة، و فسّر ذلك بارتباط هذين النوعين من العلوم بالأيديولوجي والمجتمعي؛ و هو ما يعبّر بوجه من الوجوه عن وحدة وتجانس الحقل المعرفي. و هكذا نجد باختين يقارن بين التطوّرات و الثورات الحاصلة في الأدب من جهة (ممثلة في الانتقال من أحادية الصوت إلى التعدّد الصوتي) والثورات في المجال العلمي (ممثلة في الانتقال من نيوتن إلى اينشتاين ومن بطليموس إلى غاليلي).

لكن ثمة مبدأ تمييزيًّا يباعد بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية : " أن كل الجهاز المنهجي في العلوم الرياضيّة و الطبيعيّة مُوَجَّه من أجل التحكم في موضوع – شيء لا يتجلّى في الخطاب، و لا يُبَلِّغ أيّ شيء من تلقاء نفسه، **ولا يقول أيّ شيء**. فالمعرفة هنا ليست مرتبطة باستقبال أو تأويل خطابات أو علامات يرسلها الشيء موضوع الدراسة ".

أما في العلوم الإنسانية وخاصة الاختصاصات الفيلولوجية، فإن الإنسان المتكلّم و خطاباته هي موضوع المعرفة: " ففي مجال الشعرية وتاريخ الأدب، و كذا فلسفة اللغة إلى حدّ بعيد،[...] لا يمكن حتى "للوضعية " الأكثر

جفافا أن تدرس الخطاب باعتباره شيئا وبطريقة محايدة. و إنّها لتضطر للحديث ليس عن الخطاب، بل تتحدّث عنه بواسطة الخطاب، و ذلك لإدراك المغزى الأيديولوجي الذي لا يمكن إدراكه إلا بواسطة عملية فهم حواريّة تفترض السؤال والجواب والتقويم ".

العلوم الإنسانيّة هي إذن علوم موضوعها الإنسان في خصوصيته وليس شيئا لا صوت له أو ظاهرة طبيعية. الإنسان في خصوصيته ككائن بشري يعبر دائما (أي يتكلّم)، أي ينتج نصوصا. طبعا يمكن أن ندرس الإنسان خارج النصوص وبمعزل عنها.ولكننا سنكون حينها ليس في مجال العلوم الإنسانية و إنما في مجال العلوم الطبيعية (البيولوجيا،علم وظائف الأعضاء إلخ...).

موضوع العلوم الطبيعية إذن **أشياء** جامدة غير منتجة للمعنى بحدّ ذاتها؛ أما موضوع العلوم الإنسانيّة فهو الإنسان المنتج للمعنى.

هناك طريقتان في تغييب موضوع الدرس: تغييب الملفوظ أو الخطاب أو النص : اختزال النّص في صفته الفيزيائية، و هو شكل من أشكال الامبريقية الموضوعية؛ أو تذويبه في الحالات السيكولوجيّة التي تسبقه وتليه : سيكولوجية المنتج وسيكولوجية المتلقي، و هو شكل من أشكال الامبريقية الذاتية. لكن باختين يخالف هذين الاتجاهين و يحدّد موضوعا مختلفا للدراسة: فهو يرى أن هذين الاتجاهين يقعان في الخطأ نفسه، إنهما يحاولان **اكتشاف الكل في الجزء**، و يقدّمان بنية الجزء، التي عزلاها بصورة تجريديّة، على أنّها بنية الكلّ. في حين أن "الفنّي" في كليّته لا يكمن في الشيء (المادّة اللّغوية) و لا في سيكولوجيّة المنتج أو المتأمل المنظور إليه بصورة معزولة. إنّ "الفنّي" يشمل هذه المظاهر معًا" **إنه شكل خاص للعلاقة بين المبدع والمتأمل، مثبت في العمل الفني**". تأسيسا على هذا، يعبّر باختين عن اختلافه مع الاتجاه البنوي في دراسة النصوص اللغوية فيقول: " إن موقفي من البنويّة يتمثل في رفضي الانغلاق داخل النصّ [...] رفضي لشكلنة قصوى

حيث تكتسي العلاقات طابعا منطقيّا محضا. أما أنا فإنّي أسمع **أصواتا** في كل مكان وألمس علاقات بينها ".

و هكذا انطلاقا من الاختلاف في تحديد طبيعة الموضوع ينشأ اختلاف في منهج الدراسة. وعوض الحديث عن المعرفة يتكلّم باختين بالأحرى عن الفهم (Compréhension)، و هو في هذا يلتقي من المفكر الهيرمنيوطيقي "دلتاي".

وكل فهم حواريّ بطبيعته: " أنه قول على قول وخطاب حول خطاب ونصّ يتحدث عن نصّ آخر. هذه هي الخصوصيّة الجوهريّة التي تميّز الاختصاصات في العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعيّة، رغم أنّه حتى هنا لا توجد حدود نهائية بل هناك معابر قد تربط هذه بتلك ".

و النص هو الموضوع الذي تشترك فيه العلوم الإنسانية، و لكن هذه العلوم مختلفة؛ ذلك أنّ العلم، كما تبين لنا ابستمولوجيّة العلوم، لا يتحدد بالنظر إلى موضوع حقيقي، بل بالنظر إلى **موضوع معرفة** ينشأ من اعتماد زاوية نظر خاصة للشيء نفسه. و من هنا لا يجب الظنّ بأنّ هذا الشيء الحقيقي، هذه الواقعة الكليّة ذات الوجوه المتعددة (اللغة، الخطاب) يمكن أن تكون موضوع علم واحد هو اللسانيات، بل هناك زوايا أخرى يمكن النظر من خلالها إلى هذا الشيء الواحد. و من بين زوايا النظر هذه يذكر باختين التداولية إلى جانب اللسانيات. بل أنه يرى أن التداولية أداة للفهم تتفوّق على اللسانيات بالمعنى الذي كان سائدا وقتها.

موضوع اللسانيات هو **اللّغة** و أقسامها المختلفة (الوحدة الصوتية،الحرف،الكلمة،الجملة...)، أمّا موضوع التداولية فهو الخطاب، الذي تجسّده **ملفوظات** ينتجها أفراد

و واضح أن الملفوظ هو نتيجة بناء ليست المادة اللغويّة إلاّ مكوّنا من مكوّناته، و يجب أن نأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه **التلفّظ** و ما يضيفه للمادّة اللغوية وهو السياق التاريخي و الاجتماعي والثقافي الخ..

يلعب السياق الذي تتم فيه عمليّة التلفظ دورا حاسما في تحديد المعنى الكلّي للملفوظ. و السياق فريد من نوعه، لهذا يمكن المقابلة بين الوحدات اللغوية من ناحية، و هيئات الخطاب (Les instances du discours) من ناحية أخرى، أي المقابلة بين ما هو متكرر" من ناحية، و ما هو متفرّد من ناحية أخرى.

ينجم عن هذا صعوبة ابستمولوجيّة، و يطرح السؤال: هل يمكن للعلم أن يتناول بالدرس ظواهر متفرّدة تستعصي على التكرار مثل الملفوظات (و لعلّ هذا هو ما دفع "دوسوسير" إلى استبعاد الكلام(Parole) من اهتماماته) ؟ يرد باختين بالإيجاب: أولا " لأنّ نقطة الانطلاق بالنسبة لكلّ علم هي وحدات غير متكررّة [...].ثانيا لأن العلم، و خاصة الفلسفة، يمكن بل يجب أن تدرس هذا الشيء الفرد و**وظيفته** المميّزة". على أن التداولية، باعتبارها علم الملفوظ، لا تدرس ما هو متفرد في كل ملفوظ، بل تدرس القواعد التي يشتغل الملفوظ على أساسها.

و قد يبدو أنّ "الإنسان الفرد، الإنسان السيكولوجي المتلفظ والمنتج للمعنى هو انسان متميّز جوهريا عن غيره،لا يمكن إدراكه إلاّ من خلال الجوس في أعماقه لاكتشاف جوهره المتفرّد.

لكن لا وجود لإنسان خارج المجتمع، و الشخصية الإنسانية لا تصبح تاريخيّا حقيقيّة و منتجة للثقافة إلاّ باعتبارها جزءا من مجموعة اجتماعية. " لا يكفي أن يولد الإنسان ولادة فيزيولوجية، الحيوان أيضا يولد هكذا ولكن ولادة ثانية، ولادة اجتماعية هي أمر ضروري. و إن الموضعة (objectivation) الاجتماعية والتاريخية هي التي تحقق الإنسان، و هي التي تجعله منتجا للمعنى وتحدد محتوى إبداعه الشخصي و الثقافي".

المعني إذن يفترض وجود مجموعة بشرية. فنحن عندما نتكلم نخاطب دائما شخصا ما حتى و لو لم يكن حاضرا حضورا فعليّا. و المخاطب بصورة أو أخرى يساهم في تشكيل معنى الملفوظ: الملفوظ إذن هو منتوج **التفاعل** بين المتخاطبين، و هو، بصورة أوسع، منتوج الوضعيّة الاجتماعية

المعقدّة التي انبثق فيها ومنها. و هكذا فإن الملفوظات اللّغوية لا تعكس ديناميكية الروح الفرديّة، **بل الديناميكية الاجتماعية** للعلاقات بين المجموعات داخل المجتمع.

انطلاقا من هذه النظرة يتميز باختين عن الأسلوبيّين يقول: " لا تعرف الأسلوبيّة كيف تدرك، فيما وراء التنويعات الفردية وتنوع الاتجاهات الأدبية، المصائر الكبرى الغفل للخطاب الأدبي. إنما تجهل حياة الخطاب الاجتماعية خارج ورشة الفنان ".

و بالمقابل ينتقد باختين اللسانيات التي لا تأخذ هي أيضا بعين الاعتبار تلك المصائر التاريخيّة للخطاب الأدبي، و لاتهمّها إلاّ **مادّة** الخطاب **اللغوية** والعلاقات المنطقية المجردة.

و في نفس الاتجاه يأخذ باختين على المدرسة الشكلانية، التي كانت معاصرة له، أنها لا تهتّم إلاّ بمادة العمل الأدبي، و أنّها تغلق على نفسها داخل النص بحجّة دراسة "أدبيّته" التي تحدّد خارج أي سياق ! غير أنّ المادّة اللّغوية ليست إلاّ جزءا من الملفوظ، و يوجد في الملفوظ شيء آخر غير لغوي، يتعلق بسياق التلفظ.

قبل باختين كان السياق ينظر إليه أغلب الأحيان على أنه شيء خارجي بالنسبة للملفوظ، لكن باختين يعتبره جزءا لا يتجزأ منه؛ و أكّد ذلك بحجج قويّة. و قد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى أغلب الباحثين الآن. و هي فكرة يؤكدها مثلا "مانقونو" في أكثر من موضع من مؤلفه :

« Pragmatique pour le discours littéraire ».

إن الوضعية الخارج لغوية في رأي باختين لا تؤثر في الملفوظ من الخارج مثل قوّة ميكانيكية، بل أنها تدخل في الملفوظ باعتبارها مكوّنا ضروريّا في بنيته الدلاليّة.

و مهما كان الملفوظ، فإنه يتحدّد بالنظر إلى الظروف الحقيقية التي يقع فيها التلفظ، و في المقام الأوّل الوضعية الاجتماعية المباشرة. و لا يمكن فهم الاتصال اللغوي أو تفسيره خارج علاقته بالوضعيّة الملموسة. يقدم باختين

مثلا يوضح فكرته:"هُوَذا". يقول باختين : يمكن لنا أن نقلّب هذا الملفوظ في شتّى الاتجاهات وندرسه من مختلف الجوانب ونبحث بنيته الصوتيّة و الصرفية والتركيبية، لكنّنا لن نظفر بشيء من معناه. يمكن أن يزول هذا الغموض قليلا إذا أخذنا بعين الاعتبار النبرة التي تميّز عملية التلفظ؛ و هي نبرة قد تكون غاضبة مثلا أو متأسفة أو ساخرة فتنبئنا عن موقف المتلفظ من الشيء موضوع الحديث؛ لكننا رغم ذلك لن نكشف معنى ذلك الملفوظ و لا موضوعه. سينجلي ذلك الغموض إذا عرفنا السياق (بيت و نافذة: أفق مكاني مشترك بين المتخاطبين + معرفة الوضعيّة (فصل الربيع + تساقط الثلج) + تقويم المتخاطبين لتلك الوضعية : ضيق باستمرار تساقط الثلج ورغبة في الحلول الفعلي لفصل الربيع).

هذه الفكرة نفسها نجدها أيضا عند "مانقونو" الذي يؤكد على ضرورة توفّر جملة من **المعارف** المشتركة المتعلّقة بالسياق والتي يستحيل من دونها فهم الملفوظ مهما كانت معارفنا اللغويّة.

الجملة باعتبارها وحدة لغويّة لا يحتاج تكوينها إلى سياق بل تكفي القواعد اللغوية. أما الملفوظ فإنّه ينتَج ضرورة في **سياق** خاص؛ و هو سياق اجتماعي دائما. و تعود اجتماعية الملفوظ إلى مصدرين: فهو موجّه دائما إلى شخص؛ كما أن المتكلّم دائما كائن اجتماعي. و الملفوظ ليس مسألة خاصة بالمتكلم وحده، بل أنه ناتج عن **التفاعل** مع مخاطب يُدمَج رد فعله المتوقّع مسبقا في الملفوظ. بل أن هناك من يذهب إلى حد نعت المخاطَب بأنه شريك في عملية الإبداع.

في هذا المجال (التفريق بين الخطاب واللغة) يميز باختين بين الدلالة والمعنى : الدلالة، بخلاف الموضوعة أو التيمة، متكرّرة؛ و هي في كل الحالات مساوية لذاتها لا تتبدل، أي أنّها لا تعني شيئا. و كل ما تمثله الدلالة هو احتمالية و إمكانية أن تكتسب معنى في وضعيّة ملموسة وموضوعة ملموسة. أما المعنى فإنه يتخلق في الملفوظ بالنظر إلى سياق معين (السياق هنا بالمفهوم الواسع : موضوع الحديث؛ سياق الخطاب، طبيعة النص: أدبي،

شعري، روائي...). كما يلعب السياق الخاص بالمتلقي دورا في بناء معنى الملفوظ حيث يلتقي سياقان : السياق المتضمّن في الملفوظ و السياق الملموس الذي يلتقي فيه المتلقي بالخطاب أو النّص الخ...

هناك خاصية أخرى يتميّز بها الملفوظ، و هو أنه يحمل **قيما**؛ و على العكس من هذا فإن الدلالة الجامدة، و بالتالي اللغة، غريبة عن عالم القيم أو العالم الخِلاقي (le monde axiologique) كما يسميه البعض.

إن الملفوظ وحده هو الذي يمكن أن يكون جميلا كما يمكن أن يكون صادقا أو كاذبا. و هي مقولات لا تتصل باللّغة بل تتصل بالملفوظات والأعمال (œuvres)،وترتبط بالوظائف التي تؤدّيها في الحياة الاجتماعية، و خاصة في جانبها الإيديولوجي، في الأفق الإيديولوجي للمتخاطبين. و لا يمكن أن تتأسّس خصائص الملفوظ بغض النظر عن هذه الوظائف.

بالإضافة إلى كل هذه العناصر المحدّدة للخطاب ودلالته والتي هي عناصر غير لغوية، هناك عنصر آخر غير لغوي أو هو يوجد على تخوم اللّغوي وغير اللّغوي : أنه النبرة أو التنبير (l'intonation). و قد أولاه باختين أهمية كبيرة خاصة في بحثه الموسوم : " الخطاب في الحياة والشعر": " توجد النبرة على حدود اللّغوي و غير اللّغوي، المقول و المسكوت عنه. من خلال النبرة يتصل الخطاب اتصالا مباشرا بالحياة، و من خلال النبرة يتصّل المتكلم بالمخاطبين. النبرة إذن هي اجتماعية بالدرجة الأولى [...] أنها التعبير الصوتي عن التقويم الاجتماعي".

و لتوضيح ذلك يمكن أن نأخذ المثل التالي حيث يخاطب جزائري شخصا أو أشخاصا بالملفوظ التالي: " صَحَّ ". يمكن لهذا الملفوظ أن يأخذ معاني مختلفة بحسب النبرة التي تصاحب عملية التلفظ، فيمكن أن يعبر عن غضب واحتجاج؛ و يمكن أن يعني سلاما؛ و يمكن أن يعبر عن موافقة الخ...

انطلاقا من هذه الملاحظات، كيف يمكن أن يدرس الملفوظ ؟

يرى باختين أن الوصف الشامل للملفوظ يتطلب أن نأخذ بعين الاعتبار صوت المتكلم أو المؤلف، و كذا صوت القارئ أو المخاطب وأصوات الآخرين التي تتخلل خطاب المتكلم أو المؤلف.

يولي باختين أهميّة خاصة للعلاقة بين المتكلم والمخاطَب فهي علاقة تحدد نبرة الملفوظ التي تلعب دورا متميّزا كما رأينا. و النبرة لا يحدّدها محتوى موضوعي ولا تجارب المتكلّم، بل تحدّدها **العلاقة** بين المتكلّم والشخص الذي يوجه إليه خطابه (أهميّة ذلك الشخص، موقعه، مرتبته : رئيس، أمير، أب، أخ، أم، صديق، طبيب، أستاذ الخ...) وموقف المتكلم منه.

رأينا تأكيد باختين على الطبيعة المتفرّدة للملفوظ و الصعوبة الإبستمولوجيّة الناجمة عن تلك الصفة؛ و رأينا كيف حلّ باختين هذه الصعوبة عندما أكد على أن التداولية تدرس القواعد التي يشتغل الملفوظ على أساسها. في هذا المضمار، و امتدادا للفكرة السابقة يرى باختين أنه رغم الطابع المتفرد اللاتكراري للملفوظ، و بالنظر إلى العلاقة بين الملفوظ و السياق، يمكن أن نصنّف مختلف الملفوظات ضمن **نماذج** (types d'énoncés) . و بالفعل، إذا كان كلّ ملفوظ موجّها نحو أفق اجتماعي يتكوّن من عناصر دلالية و قيميّه ،فإنّ هذه الآفاق اللغوية و الإيديولوجية كثيرة لكنها ليست لا نهائيّة. وإن كل ملفوظ يندرج ضرورة ضمن نموذج خطابي أو عدّة نماذج يحدّدها ذلك الأفق:" في اللغة،أيّ لغة،لا يمكن لأي كلمة ولا لأيّ شكل أن يبقى محايدا، لا ينسب لأيّ شخص : إن كلّ لغة هي في الواقع مشتتّة، تخترقها نوايا المستعملين. و اللغة، بالنسبة للوعي الذي يعيش داخلها، ليست نظامًا مجرّدا من الأشكال المعياريّة، بل هي مواقف متباينة ملموسة من العالم. إن كلّ كلمة تحمل طابع المهنة، و النوع، و الاتجاه، والنزعة، و العمل، و الشخص، و الجيل، و السن بل اليوم و الساعة. إن كل كلمة تحمل طابع السياق والسياقات التي عاشت فيها حياتها الاجتماعية النشيطة.إن التنويعات السياقيّة (المتعلقة بالنوع، و الاتجاه، و الشخص الخ...) تترك آثارها على الكلمة وتطبعها.

يؤكد باختين بهذا الصدد، و هو يجادل الاتجاهات اللسانيّة، أن دوسوسير ينسى أنّه، إلى جانب أشكال اللّغة، **توجد أيضا أشكال تركيب لتلك الأشكال**، أي أنه ينسى الأنواع الخطابية. إن كل ملفوظ خاص هو بالضرورة فردي، و لكن كلّ مجال من مجالات استخدام اللغة يصوغ نماذجَ ملفوظات **مستقرّة نسبيًّا**: إنّها الأنواع الخطابية.

داخل هذه الأنواع يمكن أن نجد أنواعا فرعية (sous-genres). و لغة الحياة اليوميّة، التي يعتبرها باختين الأساس في نشأة الأنواع الأدبيّة، حافلة بها. إنّ السّؤال، و التعجّب و الأمر، و الطلب هي من أشكال الملفوظات اليوميّة المكتملة الأكثر نمطيّة. و إنّ كل وضعية نمطيّة من وضعيات الحياة تنشئ نمط تعبيرها الخاص. ذلك هو حال ثرثرة مجتمع الصالونات الذي استغلّه مثلا مارسيل بروست في بناء روايته بحثا عن الزمن الضائع، و درسه بيتر تسيّما و حاول تحديد السمات النمطيّة للملفوظات في هذا المجتمع. يمكن أيضا أن نجد شكلا نمطيا مكتملا للحديث بين الزوج وزوجته، والأب و ابنه، و الأخ وأخته، و الطبيب والمريض الخ...إنّ كلّ وضعيّة يوميّة مستقرّة تتضمّن حضورًا معيّنا منظما بطريقة خاصة و تستوجب بالتالي أنماطا خطابيّة يوميّة فرعيّة.

و في هذا الإطار، إطار العلاقة بين أنواع الخطابات من ناحية، و السياق من ناحية أخرى تتنزل الأنواع الأدبية المختلفة من قصّة و رواية و مسرحية و شعر الخ... إنّ هذه الأنواع هي أشكال أو استراتيجيات تعبيريّة لا يمكن إدراك دلالة الخطاب ومعناه إلاّ بالعودة إليها وأخذها بعين الاعتبار. إننّا لا نقرأ رواية كما نقرأ قصّة أو مسرحية أو قصيدة شعرية. و يبدو النوع هنا شيئا يشبه "كلمة السر" التي تفتح الطريق لا كتناه المعنى.

إننا لا نقرأ النص الذي نسميه أدبيا مثلما نقرأ نصا لا نعتبره أدبيًّا. هذه الفكرة يؤكدها تداوليّ آخر هو "مانقونو" و نلمح هنا الشبه الواضح بينه و بين باختين. يقول "منقونو": " تبدو مسألة الأنواع هذه مسألة حاسمة؛ فبمجرّد أن

يعرف المتلقي النوع الذي ينتمي إليه النّص يستطيع أن يؤوّله و يتصرّف بإزائه تصرّفا مناسبا. لكن في حالة عدم تعرّفه على نوع النصّ، يمكن أن يؤدّي ذلك إلى شلل في عمليّة الفهم".

في مقابل النص القانوني مثلا يظهر النصّ الأدبي باعتباره نصًّا يفترض طقسا خاصا و شروطا لنجاح عملية تأويله : إنّ نصا أدبيًّا لا يستقبل استقبالا ملائما إذا لم ننظر إليه على أنّه أدبي. و في النص الأدبي بالذّات تبرز بقوة مسألة من المسائل التي عالجتها التداولية وأولتها عناية خاصة وهي مسألة المضمر (l'implicite).

و يظهر هنا بوضوح كيف أن الاعتماد على المكوّنات اللغوية وحدها لا يكفي؛ و كيف أنّ السياق المشترك والمعارف المشتركة و الآفاق الإيديولوجية و الفنية المشتركة تلعب دورا حاسما في هذا المجال.يقول باختين:" في الملفوظ لا يمكن أن يصبح مضمرا إلا ما نعرفه نحن- مجموع المتخاطبين -ونشاهده ونحبه ونتعرف عليه، و ما يوحد بيننا [...] إنّ " أنا " لا يمكن أن تتحقق في الخطاب إلاّ بالارتكاز على " النحن" بحيث يصبح كل ملفوظ يومي شيئا يشبه قياسا مضمرا (un enthymème) موضوعيا و اجتماعيا. إنه شبيه بكلمة السر التي لا يعرفها إلا من ينتمون إلى نفس الأفق الاجتماعي". هذا الأفق يكون أوسع بالطبع إذا كان الخطاب غير مرتبط بالحياة اليومية بالمعنى الضيّق، ليشمل ما هو مشترك بين مجموعات بشرية واسعة أو بين البشرية جمعاء. و هو مرتبط في كلّ الأحوال بالأفق الجماعي المشترك و المعرفة الجماعية.

يسمي باختين "**الوضعية**" (la situation) هذه الجوانب المضمرة من الجزء غير اللغوي في الملفوظ وعلاقة المتخاطبين بما يجري (التقويم). إنّها كلها أجزاء غير لغوية ولكن لا يمكن من دونها فهم الملفوظ.

و قد خصص "مانقونو" هو أيضا جزءا من مؤلّفه المذكور للمضمر في الملفوظات؛ و لكنه تحدث عن شيء آخر وهو ما يسميه الاستلزامات أو المقتضيات (les présupposés) و يكمن الفرق بين هذا وذاك في أن

المستلزم تأويله ثابت أما المضمر فتأويله غير مستقر. ولعل المنزع اللساني هو الذي دفع "منقونو ألاّ يتوقف عند دراسة المضمر فحسب، بل تحدّث عن المستلزمات باعتبار أنّها تعتمد اعتمادا واضحا على العنصر اللغوي الحاضر في الملفوظ و يمكن أن نستنبطها منه مباشرة.

و نلمح اختلافا آخر بين باختين و مانقونو، و هو اختلاف يعود في نظرنا إلى التوجّه السوسيولوجي الواضح عند باختين، على حين أن منقونو، رغم استفادته من الكثير من آراء باختين بل تطابق آرائه معه في العديد من القضايا، إلا أنه ينزع نزعة لسانية، و يحاول أن يؤسّس التداولية تأسيسا لسانيا، أو هكذا يبدو لنا.

و يبدو أن الفرق الكبير بينهما يكمن في أن منقونو، على عكس باختين، يضيّق أحيانا مفهوم السياق ويكاد يحدّده في وضعية التخاطب المباشرة، أي أنه يميل أحيانا إلى ما يسمى بالسوسيولوجيا المجهريّة (la micro sociologie) أمّا باختين فإنه يوسع مفهوم السياق و لا يحصره في وضعيّة التخاطب المباشرة، بل يعتد بالسياق التاريخي و يؤكد أن السياقات الاجتماعية التاريخية تؤثر تأثيرا واضحا في نشأة الأنواع الأدبيّة الكبرى وتطوّرها؛ و تساعدنا العودة إليها في إدراك تلك الأشكال ومغزاها والمحتويات المرتبطة بها. و هو ما فعله هو نفسه في مقدّمة إحدى طبعات رواية " البعث " لتولستوي عندما فسّر الفرق بينها و بين روايتي الحرب والسلم وأنا كارنينا من حيث الشكل و المحتوى الإيديولوجي والأصوات المترددة داخلها بالعودة إلى التطورات الحاصلة في المجتمع الرّوسي.

بقي أن نشير إلى توجّه أساسي طبع تفكير باختين كلّه و نشأت عنه حواريته، و هو أنه لا ينظر إلى الأشياء أبدا معزولة عن بعضها البعض، بل يضع نصب عينيه دائما العلاقات :

- العلاقة بين المتلقظ والمخاطب
- العلاقة بين المتلقظ والسياق
- العلاقة بين المخاطب والسياق

- العلاقة بين السياقات
- العلاقة بين المحتوى و الشكل
- العلاقة بين الملفوظ و الملفوظ أو بين الخطاب و الخطاب
- العلاقة بين الخطاب و النوع الذي ينتمي إليه
- العلاقة بين النوع ونظام الأدب عموما
- العلاقة بين الأدب و الثقافة...

و إن شبكة العلاقات هذه كلها لتَرْتَبِطُ ارتباطا بالنظرة الأنتروبولوجية التي يحملها باختين عن الكائن البشري منتج النصوص ومستقبلها : " إنه يستحيل تصور الكائن البشري خارج إطار **العلاقات التي تربطه بالآخر**".

ملاحظة:

الإستشهادات مأخوذة من مؤلفات باختين التالية:

- Marxisme et philosophie du langage.
- Esthétique et théorie du roman.
- Le discours dans la vie et dans la poésie.
- Préface à « Résurrection ».
- La structure de l'énoncé.

أما بالنسبة لمانقونو فقد رجعنا أساسا إلى مؤلفه:

- Pragmatique pour le discours littéraire.